مجلة دراسات القدس الإسلامية (شتاء 1998م)، 1:2، 1-16

مكان مقدس: قدسية القدس الإسلامية

كارن آرمسترونج

مؤرخة إنجليزية

المدينة المقدسة في العالم المعاصر ذات صورة متناقضة المكونات والرؤى لدى الناس. فكثيراً ما نجد المدينة مكاناً خالياً من الآله، فتبدو مزدحمة وصاخبة ومليئة بأشخاص منفردين منعزلين عن المجتمع ومتورطين في عالم العنف والجريمة. لكن كيف يمكن أن نتصور أن مدينة ذات نشاط إنساني غير مقدس يمكن أن تكون مدينة مقدسة؟ فعندما نشعر أننا بحاجة إلى غذاء روحي، فإن الكثير منا يتوجه إلى الريف، حيث الجمال والسلام والشعور بالقرب من الله. ومع هذا فإن الحب الشديد للمدن المقدسة لم يمت بعد. فالحجاج يتوجهون إلى مكة المكرمة بأعداد متزايدة وأكثر من ذي قبل. وفي عام 1993 ارتفع عدد الحجاج إلى المقام المقدس عند الكاثوليك في مدينة لورديس الفرنسية إلى مليون شخص، وذلك عندما اعتقد هؤلاء أن السيدة مريم العذراء ظهرت في المكان. والسؤال هنا، لماذا يبحث الناس عن الشيء المقدس في المدينة المقدسة؟ وماذا يقصدون بالقول بأن مدينة مثل القدس مقدسة عندهم؟

كنت أتصور في بداية الأمر أن المدينة المقدسة مرتبطة دائماً بأحداث وقعت مع بداية نشأة دين معين. وفي حالة القدس، فإن هذا النموذج يتوافق تماماً مع المسيحية، حيث يعتقد أنها المكان الذي مات فيه عيسى وبعث منه. ولكن هذا الأمر لا ينطبق على اليهودية، حيث لم تذكر القدس بشكل واضح في التوراة - التي تمثل الكتب الخمسة الأولى والأكثر قدسية في العهد العبري - كما أنها لم تربط بأي حدث من أحداث الخروج اليهودي من مصر. والسؤال هنا، لماذا يعد جبل صهيون في القدس هو المكان الأكثر قدسية في العالم اليهودي وليس جبل سيناء الذي أعطى الله لموسى عليه الأحكام وألزم نفسه لشعبه المختار؟ ولماذا يجب أن تكون القدس مدينة مقدسة عند

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

المسلمين رغم أن الأحداث التأسيسية لدينهم جرت بعيداً عن القدس في الجزيرة العربية- في مكة والمدينة - وهما المدينتان الأكثر قدسية في العالم الإسلامي.

وفي الحقيقة فإن للأماكن المقدسة في أغلب الأحيان علاقة بأحداث مباركة وقعت في الماضي، لكن الإخلاص الشديد لمكان مقدس يعود إلى أبعد من ذلك. فقبل وقت طويل من بدء البشرية في رسم خارطة العالم مادياً وعلمياً، قاموا بتطوير ما يسمى "بالجغرافية المقدسة"، حيث عدت بعض الأماكن أقرب إلى الله من أماكن أخرى. وربما يكون لبعض المعالم البارزة مثل صخرة أو شلال مدلولاً خاصاً في محيطها، وتعبر عن **شيء آخر** يوجه إنتباه الناس إلى بُعد يسمو فوق العالم. وقد كانت الجبال رموزاً محببة لهذا السمو: فعندما يتسلق العابدون إلى قمة جبل مقدس فإنهم بذلك يقومون برحلة رمزية إلى المقدس. وعند قمة الجبل - في منتصف الطريق بين الأرض والسماء - يرتفع المتسلقون فوق اهتماماتهم الدنيوية ويتخيلون أن الآلهة تنزل للقائهم. وأحياناً كان يُزعم أن إلهاً قد ظهر في مكان معين ويُدعى بأن ذلك المكان خاص به. وبناء عليه، فلقد كان المكان المقدس هو ذلك الموقع الذي يجتمع فيه الناس مع ذلك الإلهي المقدس، ولتعميق هذه التجربة فإنهم في أغلب الأحيان كانوا يستعملون وسائل كالموسيقى والطقوس أو وسائل الدراما المقدسة. وحتى في الإطار العلماني البحت، فإن المسرح يمنح شعوراً قوياً نحو السمو. وفي أغلب الأحيان، يلعب التصميم المعماري للمقام أو المعبد دوراً في التعبير عن تلك القدسية، وهو الأمر الذي يوجد من ناحية رمزية الرحلة الداخلية التي يتوجب على العابد القيام بها للوصول إلى إلهه.[1]

ويخبرنا المؤرخون بأن الحج والولع الشديد بمكان مقدس ربما يكون أقدم عادة دينية في العالم وأكثرها انتشاراً. ويبدو أن لها جذوراً عميقة في النفس الإنسانية، مما يساعدنا على إيجاد مكاننا الحقيقي في العالم. فعندما يتوجه اليهود والمسيحيون والمسلمون في صلاتهم إلى القدس أو مكة، فإنهم ينصرفون بذلك عن اهتماماتهم الحياتية اليومية، ويرتقون إلى التكيف مع الحقائق ويركزون على القيم العليا ويضعون الأمور في نصابها الصحيح. وقد شكلت القدس مكاناً ذا معنى بالنسبة لليهود

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

والنصارى والمسلمين، وغدت ركناً أساسياً في هوية الديانات الإبراهيمية الثلاث. فلقد زاروا القدس ليكونوا على اتصال بتيارات أعمق للوجود، وللبحث عن مصدر الشفاء والسلام. وغالباً ما يكون للأساطير التي لها علاقة بأماكن مقدسة، صلة بقصة من العصر الذهبي، الذي يعتقد في جميع الثقافات أنه يرجع إلى قديم الزمان عندما عاش الرجال والنساء بسلام مع بعضهم البعض ومع الطبيعة والآلهه. وتتكلم تلك الأساطير العالمية عن السلام والكمال اللذين أشعرا الناس دائماً بالحالة الإنسانية المثلى. وهناك شعور بأن الحياة لم يكن المقصود منها أن تكون مكاناً للألم والصراع والتشتت.[2] وعندما يقول اليهود والنصارى والمسلمون بأن القدس أو مكة تحتل مكانة جنة عدن فهذا يعني بكلمات أخرى أن هذه الأماكن الأكثر قدسية تولد إحساساً أصيلاً متناغماً يوحي وكأنه الجنة. وحينما يزورون هذه المدن المقدسة، فإنهم يشعرون غالباً بأنهم استعادوا ولو للحظة هذا الكمال الأصلي وعادوا الى الألفة والوحدة اللتين ترتبطان بتجربتنا الإلهية ارتباطاً وثيقاً. ويشكل مفهوم العودة إلى الكمال الأصلي عنصراً محورياً في التجربة الإسلامية لقدسية القدس.

ولكن الدين ليس مجرد الحصول على تجربة مرضية بل ينبغي أن يكون له بعد أخلاقي، وكذلك الحال بالنسبة للحب الشديد لمكان مقدس. فلا يكفي أن يشعر الإنسان بشعور دافئ هناك، بل يجب ترجمة ذلك الشعور إلى عمل أخلاقي بحيث لاتبقى الوحدة والإنسجام ترفاً شخصياً، بل يجب التعبير عنهما في الحياة الإجتماعية في المدينة بطرق عملية جداً. ويبدو أنه منذ أقدم العصور كان الإعجاب بالقدس مرتبط ارتباطاً شديداً بالبحث عن العدالة الاجتماعية. لذلك فإن الكتاب المقدس يذكر بأن الأنبياء وأصحاب الزبور كرروا تذكير شعوبهم بأن القدس لا يمكن أن تكون مدينة السلام إلا إذا كانت كذلك مدينة العدل.[3] وأنه لا فائدة من عبادة الله في معبده في القدس إذا كان شعب إسرائيل يتجاهل الفقراء والمساكين والمظلومين. وهذه نقطة مهمة، فبعض أبشع الجرائم في تاريخ القدس المأساوي الطويل وقعت عندما شعر الناس بولع التملك الشديد تجاه المدينة المقدسة، ووضعوا رغبتهم في الإستحواذ على قدسيتها فوق الإهتمام

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

بالعدل والمساواة. فقدسية القدس ليست مجرد جائزة يجب الحصول عليها، بل هي دعوة للقيام بالعمل الصالح. إنها دعوة دائمة لإعادة تجسيد عدل الله في الأرض. ورغم قدسية معابدها العظيمة، فإن إمكانية أن تصبح القدس مدينة مقدسة أو غير مقدسة منوط بقدر ما يحقق سكانها هذه الرؤيا من المساواة واللياقة الاجتماعية.

لقد احتفل اليهود والنصارى والمسلمون بقدسية القدس بوسائل متشابهه، لكن هنالك اختلاف بارز في المفهوم الإسلامي للمكان المقدس. ففي اللغة العبرية تعني كلمة مقدس "قدوش" أي "الشيء المنفصل"، وهذا يعني بأن اليهود يحتفلون بقدسية الأشياء بواسطة فصلها عن بعضها البعض. فهم يفصلون بين الحليب واللحم، وبين يوم السبت عن بقية أيام الأسبوع، وبين اليهود وغير اليهود. وبهذه الطريقة يعزل الشيء المقدس عزلاً تاماً عن الشيء الدنيوي. وبالطريقة نفسها عدوا قدسية القدس وكأنها سلسلة حلقات من الفصل المتدرج، إذ لا يمكن لليهودي دخول منطقة المعبد إلا إذا أُجري عليه عدد من طقوس التطهير التي تفصل بينه وبين الجنس البشري وتلوث الحياة اليومية. كما صمم المعبد اليهودي كسلسلة من الساحات المتداخلة مع بعضها البعض، فكل واحدة منها أكثر قدسية من الساحة التي سبقتها. وبناء عليه، فإن كل واحدة منها ممنوعة على عدد متزايد من الناس. وفي الطرف الخارجي من المعبد خصصت ساحة لغير اليهود والتي توصف بأنها أقل قدسية من غيرها. وهنالك نقوش تحظر على غير اليهود دخول ساحة المعبد وتحذر كل من يخالف تلك التعليمات بالقتل. ويلي ذلك ساحة النساء، وهنَّ مثل غير اليهود ممنوع عليهن دخول الساحات الداخلية من العالم اليهودي. أما الذكور من اليهود ممن هم في حالة الطهارة فبإمكانهم التقدم نحو ساحة الإسرائيليين ومشاهدة الطقوس، ولكن دون السماح لهم بدخول ساحة الحاخامات المنحدرين من هارون وزادوك. ولا يحق لأي إنسان عادي دخول قاعة العبادة المعروفة باسم الهيكل والتي يقوم بالخدمة فيها الحاخامات، وهي التي تؤدي إلى قلب المعبد المعروف باسم "قدس الأقداس" وهو عبارة عن غرفة مظلمة وفارغة لا يسمح بدخولها إلا للحاخام الأكبر مرة واحدة في السنة، وذلك في يوم الغفران.[4]

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

أما النصارى فلقد طوروا كذلك رؤيا مميزة لقدسية القدس. فلم يسمح البيزنطيون النصارى – الذين حكموا القدس من القرن الرابع إلى بداية القرن السابع الميلادي – لليهود بالإقامة الدائمة في المدينة المقدسة. وإنما سمحوا لهم بزيارة جبل المعبد مرة واحدة في السنة، للحداد على فقدان القدس اليهودية التي دمرها الرومان عام 70 بعد الميلاد. وترك مكان المعبد القديم خراباً كرمز لهزيمة اليهودية. وفي السنوات الأخيرة من الهيمنة البيزنطية استخدم النصارى جبل المعبد كمزبلة للمدينة. أما النصارى الغربيون فلقد انتهجوا سياسات إبعاد أكثر حدة وأكثر إراقة للدماء. فعندما احتل الصليبيون القدس عام 1099م ذبحوا 30 ألف يهودي ومسلم خلال يومين، وأبعدوهم عن المدينة المقدسة مثل تطهيرها من الفئران. وهذا الدرك الأسفل في تاريخ القدس يشكل ذكرى مرعبة للحدث الوحشي الذي يمكن أن يتكرر عندما تعلوا السيطرة على المدينة فوق حقوق سكانها التي تتميز بالدرجة نفسها من القدسية.

وبخلاف ذلك كان للمسلمين "جغرافيا مقدسة" مختلفة، حيث لم يكن لديهم تناقض أساسي بين الشيء المقدس والشيء الدنيوي كما هو الحال عند اليهودية. فحيث أن كل الأشياء – كما يعتقد المسلمون – تأتي من الله فإن كلها خير عندهم. فهدف الأمة الإسلامية هو تحقيق التكامل والتوازن بين الإنسان والله، وبين الظاهر والباطن، بحيث يكاد الفرق بينهما معدوماً. فكل شيء بطبيعته مقدس وعلى الإنسان أن يطور هذه القدسية. ولذلك فجميع الأماكن لها قدسيتها الخاصة وليس هناك مكان أكثر قدسية من الآخر. فدين الإسلام دين واقعي، أدرك فيه محمد أن البشر بحاجة لرموز لتركيز نظرهم عليها. ولهذا فمنذ السنوات الأولى من الدعوة درَّس محمد المسلمين بأن هنالك ثلاثة أماكن مقدسة في العالم. وأول هذه الأماكن المقدسة بطبيعة الحال هي مكة. ولما كانت النظرة إلى الإسلام هي العودة إلى دين الفطرة الأصلي الذي جاء به إبراهيم، فإن مكة ومقامها المقدس – الذي أعاد بناءه إبراهيم وفقاً لما حدَّث به القرآن (آدم هو الذي بنى الكعبة أول مرة) – تعد المكان المقدس الأساسي في الإسلام. وبما أنه لايوجد إلا إله واحد ودين واحد – وتبين ذلك في أشكال كثيرة – فكذلك

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

لايوجد إلا مكان مقدس واحد تم كشفه بطرق متعددة. فجميع الأماكن المقدسة في العالم الإسلامي تستمد قدسيتها من مكة، وتعد إمتداداً لهذه القدسية المركزية. وجميع المقامات الإسلامية الأخرىهي انعكاس لمكة، التي هي الرمز الأصلي للقدسية. وهذه الرؤيا هي تجسيد للتوحيد بقدسية الكون ووحدته[5].

وبالطريقة ذاتها، شاركت جميع المدن والدول الإسلامية اللاحقة في القدسية الأصلية للمدينة المنورة، التي هي موطن الرسول. كما أن جميع المساجد اللاحقة إتخذت من المسجد المتواضع الذي بناه محمد بالمدينة مثالاً إحتذت به. ويكشف المسجد عن نظرية أكثر شمولاً للمكان المقدس من تلك التي شاهدناها حتى الآن في كل من اليهودية والمسيحية. فالمسجد لا يوجد فصل فيه بين الشيء المقدس والشيء الدنيوي، ولا بين الروحي والجنسي، ولا بين الديني والسياسي. فلقد عاش محمد وزوجاته في بيوت صغيرة محيطة بساحة المسجد، التي شهدت كذلك اجتماعات عامة لمناقشة الأمور الإجتماعية والسياسية والعسكرية بالإضافة إلى الشؤون الدينية. وينبغي أن تشمل القدسية الحياة بكاملها كونها تعبر عن التوحيد. وحيث أن جميع الأماكن مقدسة بطبيعتها، فلا ينبغي عزل المسجد عن البيئة المحيطة به. وبالمقارنة، فهنالك تشجيع على زراعة الشجر حول المسجد، في حين يحرم زراعة الشجر حول المعبد اليهودي. كما يمكن للمساجد أن تكون مليئة بالأضواء، للطيور أن تطير حولها حتى أثناء صلاة الجمعة بخلاف الأديان الأخرى. كما أنه يمكن دعوة العالم إلى المسجد لا أن يترك العالم خارجه. وهذه المباديء الموجودة في مكة والمدينة قد ظهرت كذلك في القدس التي هي ثالث مكان مقدس في العالم الإسلامي.

ورغم أن الجيوش الإسلامية لم تفتح القدس إلا في عام 638 ميلادية، أي بعد ست سنوات من وفاة الرسول، إلا أنه كان لمدينة القدس قدسية خاصة عند المسلمين منذ فترة مبكرة من ظهور الإسلام، حيث كانت قبلتهم الأولى. وعندما بدأ محمد بدعوته في مكة، كان من بين أوائل الأشياء التي علمها لأتباعه القلائل الذين آمنوا به هو التوجه في صلاتهم نحو القدس وإدارة ظهورهم إلى التقاليد الوثنية القديمة في الجزيرة

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

العربية، التي مثلتها في هذه النقطة الكعبة، والتوجه عوضاً عن ذلك إلى رب اليهود والنصارى، الذي كان على المسلمين أن يعبدوه الآن. لذلك شكلت القدس مرحلة رمزية مهمة في الرحلة الشاقة التي تطلبت من المسلمين قطع علاقاتهم بتقاليدهم المحبوبة القديمة. حتى أنهم أُجبروا فيما بعد على خلع رابطة القرابة والدم المقدسة عندما ترك المسلمون قبائلهم أثناء الهجرة إلى المدينة لتشكيل مجتمع جديد يقوم على الأيديولوجية الإسلامية. وفي وقت لاحق في المدينة، حول محمد المسلمين للصلاة نحو مكة مرة أخرى، ولكن المسلمين لم ينسوا الدور الذي لعبته القدس في هذا الصراع للإنضمام إلى عائلة التوحيد.

لقد كان بكل تأكيد صراعاً عظيماً، ويجب أن لا ينسينا هذا الإنجاز الكبير الذي حققه محمد تلك الآلام والأخطار التي عاناها المسلمون لنشر الدعوة الإسلامية. فالمؤسسة الوثنية اضطهدت المسلمين في مكة، وهددتهم لمدة ثماني سنوات أخرى في المدينة المنورة بالحرب والفناء. بالإضافة إلى ذلك كان محمد يعمل لوحده دون أي مساعدة من الديانات القائمة. ورغم هذه العزلة المفروضة عليه، فقد جاهد في مدة لم تزد عن 23 سنة بإتجاه صلب التجربة التوحيدية والدينية. لقد كانت قصة رحلته الليلية إلى القدس (الإسراء) وصعوده إلى السماء (المعراج) – كما أراها – إنجازاً إستثنائياً، ولكنه أنجز منفرداً وحده. ونجد أول رواية عن هذه التجربة الروحية العظيمة في سيرة محمد بن اسحق التي كتبت في أواسط القرن الثامن الميلادي، والتي هي مبنية بطبيعة الحال على الآية القرانية في سورة الاسراء. حيث تروي القصة كيف انتقل محمد بمعجزة من مكة إلى "جبل المعبد" في القدس برفقة ملك الوحي جبريل في عام 620 م، أي قبل عامين من الهجرة إلى المدينة. ويحتمل أن تكون هذه الرحلة قد تمت بالروح فقط، إذ أن ابن اسحق يروي عن زوجة الرسول عائشة قولها إنه لم يترك سريره طيلة الليل. وعندما وصل محمد إلى "جبل المعبد" رحب به جميع الأنبياء العظام السابقين، وضموه إلى وسطهم، ثم خطب بهم. وعندما بدأ صعوده إلى السموات العلا كان يلتقي في كل

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

سماء من السموات السبع ببعض الأنبياء ويتحدث إليهم، ومن بين هؤلاء الأنبياء: عيسى ويحيى وموسى وهارون، وفي السماء السابعة التقى إبراهيم[6].

ولقد كتب ابن اسحق هذه القصة في القرن الثاني بعد الهجرة، وذلك في الوقت الذي بدأ فيه المسلمون ينظرون إلى نبيهم كرجل كامل. فهو لم يكن إلهاً بلا شك، إلا أن رسالته كانت آية ورمزاً لنشاط الله في الدنيا واستسلام الإنسان الكامل إلى الله. لقد نقلت رحلته الروحية من مكة إلى القدس قدسية مكة الأولية إلى المسجد الأقصى في القدس وربطت المدينتين، في تصور المسلمين برباط وثيق وإلى الأبد. ويظهر هذا الرمز دائماً في تفكير المسلمين عند حديثهم عن القدس. وعلى الرغم من تقليل بعض العلماء مثل ابن تيمية من أهمية بعض هذه الآثار التي تشيد بالقدس، فإن تلك الآثار تعكس مفهوم التوحيد الذي يؤكد أن جميع الأماكن المقدسة تستمد قدسيتها من المكان العتيق المقدس في مكة. وهكذا، فإن المؤرخ الواسطي الذي نشر عام 1017م أول مجموعة من الأحاديث التي تشيد بالقدس قد نسب المقولة التالية إلى النبي: "مكة هي المدينة التي شرفها وقدسها الله وأحاطها بملائكته قبل ألف سنة من خلق أي شيء على الأرض، ثم ربطها بالمدينة، وضم المدينة إلى القدس. وبعد ذلك بألف سنة خلق الله بقية العالم في عمل واحد".[7]

ونقرأ في هذه المجموعة من الأحاديث أن الجنة ستقام يوم القيامة في القدس مثل العروس، وأن الكعبة والحجر الأسود سيأتيان من مكة إلى القدس، التي ستكون المحطة الأخيرة للإنسانية كلها.[8] ويعتقد المسلمون، كاليهود والنصارى، بأن القدس ستكون هي موقع الحساب الأخير.

وبالفعل، هنالك في التراث الشعبي الفلسطيني علاقة جسدية بين مدينتي مكة والقدس. فخلال موسم الحج في مكة، يقال أنه في يوم عرفة "الوقوف بعرفات" يتسرب الماء من بئر زمزم المقدس عند الكعبة إلى بركة سليمان في القدس. وفي تلك الليلة يعقد المسلمون في القدس مهرجاناً خاصاً عند البركة. وهذه الأسطورة هي طريقة طريفة للتعبير عن الإعتقاد بأن قدسية القدس تستند إلى قدسية مكة المكرمة الأصلية، وهي

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

عملية ستزداد وضوحاً في آخر الزمان عندما تندمج قدسية مكة مع قدسية القدس إلى الأبد. وعندما يتم هذا الإندماج النهائي، سيصل التاريخ الإنساني إلى قمته، وعندها تكون الجنة على الأرض. وبالتأكيد فإن سكان فلسطين المحليين شعروا بأن مكة والقدس تشتركان في القدسية ذاتها. فربما في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي كان المسلمون غير القادرين على أداء فريضة الحج في مكة يتجمعون في القدس خلال موسم الحج. وفي يوم وقوف الحجاج بعرفات خارج مدينة مكة، كانت أفواج من سكان الريف وسكان القدس يتجمعون في ساحات الحرم الشريف في القدس وكأنهم في مكة. كما كان بعض الحجاج يضيفون إلى حجتهم زيارة تقوى أخرى إلى القدس، يلبسون خلالها ألبسة الإحرام البيضاء المخصصة للحج ويحرمون كما أحرموا في الحج.[9] وعندما يعترض بعض الناس –كما يفعلون كثيراً في هذه الأيام– ويقولون أن القدس أقل قدسية بالنسبة للمسلمين من مكة بكثير، فإنهم يجهلون النقطة الأساسية بأن المدينتين المقدستين متصلتين اتصالاً وثيقاً في تصور المسلمين. إن وحدة الإسلام تؤكد على أنه لا يمكن أن يكون هنالك شيئان أو ربما ثلاثة مقدسة، بل قدسية واحدة عظيمة معبر عنها في عدة مدن.

ما يلاحظه القاريء المعاصر لقصة الإسراء والمعراج هو تعدديتها السمحة، فمحمد لم يصل إلى "جبل المعبد" كعابد وحده بل لقي هنالك ترحيباً حاراً من جميع الأنبياء العظام الذين سبقوه. وعلى عكس التجربة اليهودية والمسيحية بالنسبة للمكان المقدس، فإن الرؤية الإسلامية للقدس لم تكن تنظر إلى المدينة على أنها مقصورة على المسلمين أو مسببة لخلاف أو شقاق بين السكان، بل على العكس من ذلك، فإن هذه الرؤية تحترم بكل تأكيد التقاليد الأخرى، كما نص القرآن الذي أوضح في أكثر من مناسبة بأن الوحي المنزل على محمد لم يلغ الكتب المنزلة على الأنبياء السابقين، بل هو بكل بساطة امتداد للدين الأزلي. إن رؤية محمد الليلية (ليلة الإسراء والمعراج) هي رؤية متناغمة، لأن كلاً من محمد وزملائه الأنبياء أكدوا نفاذ بصيرة بعضهم البعض. إن قصة إسراء النبي المثيرة من مكة إلى القدس تشير إلى شغف محمد لجذب العرب في أطراف

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

الجزيرة العربية البعيدة والتي بدت في السابق وكأنها خارج خريطة الوحي، إلى قلب ديانة التوحيد. وهي الرغبة الشديدة ذاتها التي جرى التعبير عنها عند اختيار القدس كقبلة المسلمين الأولى. ونحن نعرف أن اليهود والنصارى كانوا قبل الإسلام يسخرون من العرب لأن الله لم يرسل لهم نبياً ولا كتاباً بلغتهم،[10] لذلك شعر العرب بأنهم خارج خطة الله. لقد سعى محمد والمسلمون الأوائل من خلال التوجه إلى القدس إلى إنهاء عزلتهم الإنفرادية والإنضمام إلى عائلة التوحيد، واثقين من أنهم سيلقون كل الترحيب (من الديانات الأخرى). ومن المفارقة أن نراجع هذا الوضع بنظرة معاصرة اليوم لنجد أن القدس بدلاً من أن تكون مدينة للوحدة والشمولية للجميع، أضحت اليوم أكثر مدينة في العالم منافسة في إراقة الدماء والطائفية.

عندما فتح الخليفة عمر مدينة القدس واستلمها من البيزنطيين الرومان عام 638 للميلاد، ظل وفياً لهذه الرؤية الإسلامية الشاملة. فبخلاف اليهود والنصارى لم يحاول المسلمون إبعاد الآخرين من قدسية القدس. لقد كان عمر حريصاً على تأمين سلامة الأماكن المسيحية المقدسة وبقائها في حوزتهم. فعندما كان عمر في كنيسة القيامة يوم الفتح وحان موعد الصلاة، دعاه بطريرك القدس وقتئذ صفرونيوس للصلاة قرب مقام عيسى، إلا أن عمر رفض ذلك وخرج من الكنيسة ليصلي في الشارع العام. ولو لم يفعل ذلك، كما أوضح، فإن المسلمين من بعده سيتخذون من مكان أول صلاة إسلامية تقام في القدس (بعد الفتح) مسجداً، وأن من الضروري أن يحتفظ المسيحيون بحيازتهم الآمنة لكنيستهم العظيمة.[11] وبعد ذلك دعا عمر اليهود، الذين كانوا ممنوعين من الإقامة الدائمة في القدس لمدة أكثر من 500 عام، للعودة إلى المدينة المقدسة. وبالفعل فلقد حضر إلى القدس سبعون عائلة يهودية من طبريا، وأسسوا حياً أسفل "جبل المعبد"[12] والذي أضحى الآن الحرم القدسي الشريف، أكثر الأماكن قدسية. فيما ظل المسيحيون يتمتعون في حوزتهم بلا منازع بالجبل الغربي، الذي هو الجزء الأكثر صحة في المدينة. ولم يحاول المسلمون بناء أي مسجد في الحي المسيحي في القدس، كما أنهم لم يظهروا أى رغبة لإنشاء حقائق على الأرض في القدس إلا بعد الحروب الصليبية

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

التي دمرت العلاقات بين الديانات الإبراهيمية الثلاث في القدس تدميراً دائماً. فحتى الحروب الصليبية ظلت القدس مدينة مسيحية في أغلبها، فيما بقي المسلمون فيها أقلية.[13]

وكثيراً ما يقال بأن المسلمين لم يحاولوا أن يجعلوا من القدس عاصمة لإمبراطوريتهم ولا حتى العاصمة الإدارية لفلسطين، وفي هذا دلالة على عدم اهتمامهم الأساسي بالمدينة المقدسة. ولكن ليس هذا هو الواقع، فالحقيقة أن الخلفاء الأمويين قد فكروا في إمكانية جعل القدس عاصمة لخلافتهم بدلاً من دمشق.[14] ومن المفارقة أن من الإكتشافات الأولى للحفريات التي قام بها علماء الآثار الإسرائيليين في القدس بعد عام 1967 وجود قصر أموي عظيم ومركز إداري بجوار الحائط الجنوبي للحرم، ولكن هذا المشروع لتلك الحفريات تخلى عنه الإسرائيليون في وقت لاحق. ومن النادر أن تكون المدن المقدسة عواصم إدارية في العالم الإسلامي، فلم تكن هنالك أدنى فكرة لجعل مكة عاصمة للدولة الإسلامية بدلاً من المدينة المنورة في الأيام الأولى للأمة الإسلامية رغم تفوقها في القدسية. ولكن في حالة القدس، كان واضحاً أنه من الصعب جعل مدينة القدس التي يشكل المسلمون فيها أقلية عاصمة لبلادهم أو عاصمة لولاية. والأكثرية المسيحية واليهودية في القدس لم تكن نابعة من عدم مبالاة المسلمين تجاه القدس، وإنما نابعة من التسامح الإسلامي تجاه الطائفتين المذكورتين.

ففي تلك السنوات الأولى للإسلام، كان الإسم الإسلامي للقدس هو بيت المقدس. ويتحدث القرآن عن المسجد العظيم الذي بناه سليمان، ولقد فوجيء المسلمون عندما رافقهم البطريرك صفرونيوس إلى "جبل المعبد" وشاهدوا حالة هذا المكان المقدس الذي ترك مدمراً لحوالي 600 سنة، مليئاً بالحجارة والقاذورات الكريهة. فما كان من عمر بن الخطاب إلا أن بدأ فوراً بجمع تلك القاذورات بطرف ردائه وألقى بها من أعلى إلى واد جهنم (المعروف بواد سلوان أو واد ستي مريم أو واد النار) أسفل سفح الجبل واقتدى به أصحابه ونظفوا هذا المكان المقدس وطهروه من القاذورات.[15] وأقام عمر مسجداً خشبياً بسيطاً في الناحية الجنوبية من الساحة المقام عليها حالياً

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

المسجد الأقصى. وفي ضوء الصراع الحالي حول القدس، فإن من المفارقة مرة أخرى، أن نسجل هنا ترحيب اليهود في أيام عمر ببناء المسجد الخشبي ترحيباً كبيراً، بل أن بعضهم أشاد بالمسلمين وعدوهم خير خلف للمسيح.[16] في البداية، بدا الأمر وكأن المسلمين لم يهتموا كثيراً بالصخرة العظيمة البارزة في ساحة الحرم، ولكن فيما بعد بالتأكيد ضمها الأمويون داخل قبة الصخرة، الذي استكمل بناءها في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان عام 691م بمساعدة مهندسين بيزنطيين. ويعد هذا البناء هو أول بناء رئيسي تم بناؤه في العالم الإسلامي. وبخلاف مشاريع البناء العدوانية في القدس هذه الأيام، اتصف هذا العمل العمراني المبكر في الحرم بمحاولة لإلتئام الجروح وعلاج الإنتهاكات الماضية. فقبة الصخرة توضح رغبة المسلمين في الإستمرار والتواصل، كون جذورها تمتد بافتخار إلى المقدسات العتيقة للدين القديم. كما أن مشروع بناء قبة الصخرة اتصف بالتعاون وحتى الصداقة بين الديانات الثلاث.

ليس هنالك أي إشارة إلى رحلة الإسراء في الزخرفة الفاخرة التي تزين قبة الصخرة (من الداخل)، ولقد أوحى بعض العلماء (الغربيين) إلى أنه لم ينظر إلى الصخرة على أنها مكان معراج محمد إلى السماء، كما لم يُعرف المسجد الأقصى الذي ورد ذكره في الآية الأولى من سورة الإسراء مع مدينة القدس إلا في وقت متأخر.[17] وبغض النظر عن مدى صحة هذا، فإن قبة الصخرة أضحت نموذجاً هندسياً لجميع المقدسات الإسلامية اللاحقة، ورمزاً للصعود الروحاني الذي ينبغي على الجميع القيام به للعودة إلى مصدرهم الإلهي. وقبة الصخرة كذلك وفقاً لرؤية التوحيد تعيد للأذهان رمزية مكة التي هي المكان المقدس الأول. ففي مكة يبدو وكأن مقام الكعبة المكعب الشكل يمثل الأرض، ويؤدي إلى دائرة الطواف الذي يقوم به العابدون حول الكعبة. وفي جميع الثقافات تقريباً فإن الدائرة رمزاً للأبدية والكمال. لذلك يعكس تصميم مكة الرحلة التي يتوجب علينا جميعاً القيام بها من الأرض إلى الآخرة الأبدية حيث مصيرنا المحتوم. ويمكن مشاهدة هذه الرمزية ذاتها في قبة الصخرة التي قد تعبر عن فلسفة الصوفيين المسلمين. فالصخرة والكهف الذي يقع تحتها يمكن النظر إليهما على أنهما رمزًا

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

للأرض، وللأصل ولنقطة بداية البحث. والصخرة محاطة بشكل مثمن الزوايا، والمثمن في الفكر الإسلامي هو الخطوة الأولى للخروج من قيود الشكل الهندسي المربع. ولذلك يشكل المثمن في قبة الصخرة بداية الصعود نحو الكمال والأبدية التي يعاد تشكيلها في الدائرة الكاملة في قبة الصخرة. ولقد غدت القبة فيما بعد معلماً هاماً في الهندسة المعمارية الإسلامية، فهي رمز قوي للصعود إلى السماء. ولكن القبة تعكس كذلك التوازن الكامل للتوحيد، فخارجها الذي يمتد إلى السماء التي لا نهاية لها هو نسخة كاملة لبعدها الداخلي. وتوضح قبة الصخرة الطريقة التي يندمج فيها الجانب الإلهي والجانب الإنساني، والعالم الباطني والعالم الظاهري، وكيف يكملان بعضهما البعض كنصفين لشيء واحد. كما تعبر ألوان قبة الصخرة عن معان هامة، ففي الفن الإسلامي يوحي اللون الأزرق –لون السماء– إلى اللامحدودية، بينما اللون الذهبي إلى لون المعرفة التي توصف في القرآن على أنها الملكة التي يتقرب بها المسلمون من خشية الله.[18]

ولا حيرة في أن قبة الصخرة التي أضحت عزيزة على المسلمين تتكلم ببلاغة عن التجربة الدينية الإسلامية، كما أنه لا عجب في أن الصخرة والمسجد الأقصى أصبحا مرتبطين بمعراج محمد إلى السماء خلال القرن الثامن الميلادي. وخلال القرنين الثامن والتاسع الميلادي –لسنا على يقين متى بالضبط– ظهر عدد من المقامات وأماكن العبادة التي تحي ذكرى ليلة الإسراء والمعراج الهامة، ومنها: قبة النبي، ومقام جبريل حيث صلى محمد والملك (جبريل) مع الأنبياء الآخرين، وقبة المعراج التي بدأ منها النبي معراجه إلى العرش الإلهي، ثم بوابة النبي في جنوب الساحة التي دخل منها محمد إلى مدينة القدس برفقة جبريل الذي قاده إلى الطريق وأضاء له ظلام الليل بنور كقوة نور الشمس. وأحب الزوار المسلمون زيارة هذه المقامات بشكل متوال للإقتداء بخطى نبيهم في إحدى أهم التجارب الدينية الشخصية في حياته.[19] فعروج محمد إلى السماء يعد أكثر أفعاله كمالاً في الإسلام، ألا وهو الإستسلام لله. إنها صورة نموذجية للعودة التي ينبغي على جميع البشر القيام بها إلى مصدر الوجود. وبالإقتداء بخطوات النبي الجسدية، يقوم الزوار المسلمون برحلة داخلية رمزية على أمل أن ينالوا درجته الكاملة

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

في الإستسلام لله. وعلى مرمى حجر من قبة الصخرة، يقوم الحجاج المسيحيون في طريق الآلام بالإقتداء بخطوات عيسى ويزورون محطات الصليب، وبذلك يتبعون رحلته الأخيرة إلى المكان الذي صلب فيه، والذي قام فيه بأكثر أفعاله كمالاً في الإستسلام وطاعة الله.

ووفقا للطبيعة الشاملة للمكان الإسلامي المقدس، فقد أعادت مقامات أخرى في الحرم إلى الأذهان ذكرى أنبياء آخرين، فبدلاً من إستبعاد الديانات الأُخرى في القدس، قام المسلمون باحترام هذه الديانات الأخرى في ثالث أقدس مكان في العالم الإسلامي. فهنالك: قبة السلسلة التي يعتقد أن الملك داود حكم منها على بني إسرائيل، وكرسي سليمان الذي صلى فيه الملك سليمان بعد إنتهائه من بناء المعبد، والبوابة التي صلى فيها الإسرائيليون طلباً للمغفرة في يوم الغفران. كما يلعب عيسى دوراً حاسماً في ورع المسلمين الشديد نحو القدس. فبإمكان الزوار المسلمين الصلاة في مقامين تحت ساحة الحرم (التسوية الشرقية للمسجد الأقصى، والتي عرفت – بعد ترميمها وتجهيزها من قبل جمعية الأقصى للمقدسات الإسلامية في مدينة أم الفحم – بالمصلى المرواني)، وهي: مصلى مريم ومهد عيسى الذي تكلم منه بالمعجزة عندما كان طفلاً. ومن الحرم القدسي يمكن للمسلمين مشاهدة قبة كنيسة الصعود في جبل الزيتون التي صعد منها النبي عيسى إلى السماء بطريقة مماثلة لمعراج نبي المسلمين.

هنالك دروس كثيرة يمكن أن نتعلم منها بخصوص تبجيل المسلمين للقدس، وللفكرة الإسلامية للمكان المقدس. وأخيراً فإنني أُرحب بهذا المؤتمر الأكاديمي الدولي الأول (لعام 1997) الذي يمثل بداية محاولة أكاديمية جديدة للكشف عن القدس الإسلامية في وقت تبدو فيه في خطر. ففي أوقات الأزمات، فإن العودة إلى جذورنا والإكتشاف من حكمة مصادر الماضي، كثيراً ما تساعد على الشفاء، الأمر الذي يمكننا من إيجاد الراحة والقوة في الوقت المعاصر. ومن بين المآسي العظيمة، أن مدينة القدس، مدينة السلام، هي في الغالب حالياً مدينة الحرب والوحشية والظلم. فبدلاً من أن تكون جنة الوئام على الأرض، كما ينبغي أن تكون المدينة المقدسة، أضحت القدس الآن

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

جحيماً لايطاق من الكراهية والعنف الطائفي اليومي. وهذا يزيد من أهمية احتفال المسلمين بقدسية القدس بمفاهيمها الأصلية. فمنذ البداية، أثبت المسلمون أن تبجيل المكان المقدس لا يعني الصراع والعداء والقتل والسيطرة والإرهاب والتفجير الإنتحاري والغيرة وإستبعاد الآخرين الذين عدوا خصوماً وليسوا من العائلة. ومنذ الأيام الأولى، حتى قبل إستيلاء الملك داوود على المدينة المقدسة من اليبوسيين، عدت قدسية القدس دعوة للعدل الإجتماعي واعترافاً بالحقوق المقدسة للآخرين. ومنذ البداية، طور المسلمون رؤية شاملة للقدس لاتنفي وجود الآخرين وحبهم للمدينة، بل احترمت حقوقهم واحتفلت بالتعددية والتعايش السلمي. وهذه الرؤية الشاملة للمقدس يحتاجها سكان مدينة القدس اليوم إلى حد بعيد.

(الورقة التي ألقتها المؤرخة الإنجليزية كارن أرمسترونج ككلمة رئيسة في المؤتمر الأكاديمي الدولي الأول عن القدس الإسلامية الذي عقد في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن يوم الثلاثاء 2 سبتمبر (أيلول) 1997. ترجمة هذه المقالة من الأصل الإنجليزي إلى اللغة العربية: السيدة/ روزماري جرار، والمراجعة والتحرير: الدكتور/ عبد الفتاح العويسي، والتدقيق اللغوي: الأستاذ/ عقل ربيع)

---

1 Mircea Eliade, *The Sacred and the Profane,* trans. Willard J. Trask (New York, 1959); *Patterns in Comparative Religion,* trans. Rosemary Stead (London, 1958), pp. 1 - 37; 387 - 88.

2 Eliade, *Patterns in Comparative Religion,* pp. 382 - 85.

3 Psalms 72:4 ; 9:10, 16 ; 48:8 ; Isaiah I. See also Norman Cohn, *Cosmos, Chaos and the World to Come: The Ancient Roots of Apocalyptic Faith,* (New Haven and London, 1993), pp. 88 - 9.

4 Karen Armstrong, *A History of Jerusalem, One City, Three Faiths,* (New York and London, 1996), pp.132 - 36.

5 Clinton Bennett, "Islam" in Jean Holm with John Bowker (eds.), *Sacred Place,* (London, 1994), pp. 88 - 9.

6 Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah,* in A. Guillaume (trans. & ed.), *The Life of Muhammad,* (London 1955), p. 186. cf. also Qur'an 17:1; 53:13 - 18.

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org

7 Isaac Hasson, "Muslim Literature in Praise of Jerusalem" in L. I. Levine, *The Jerusalem Cathedra: Studies in the History, Geography and Ethnography of the Land of Israel,* 3 vols, (Jerusalem, 1981 - 82), I, p. 182.

8 Guy Le Strange, *Palestine Under the Moslems: A Description of Syria and the Holy Land from AD 650 to 1500,* (London, 1890), pp. 164 -65.

9 Hasson, "Muslim Literature in Praise of Jerusalem", p. 183; Armstrong, *A History of Jerusalem,* pp. 261 - 62.

10 Ibn Ishaq, *Sira,* p. 93.

11 Eutyches, *Annals* 16 - 17.

12 Moshe Gil, *A History of Palestine, 634 - 1099,* trans. Ethel Broido (Cambridge, 1992) 70 - 72, 636 - 38.

13 Muqaddasi, *Description of Syria, Including Palestine,* trans. & ed. Guy Le Strange (London, 1896, New York 1971), p.37.

14 Mujir ad-Din, *Histoire de Jérusalem et d'Hébron, Fragments of the Chronicle of Mujir ad-Din,* trans. & ed. Henry Sanvaire (Paris, 1876), p. 41.

15 Quoted in Le Strange, *Palestine Under the Moslems,* p.141 ; see also accounts by Muthir al-Ghiram, Shams ad-Din Suyuti, Walid ibn Muslim in *ibid,* 139 - 143.

16 Bernard Lewis, "An Apocalyptic Vision of Islamic History", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies,* 13 (1950).

17 Oleg Grabar, "The Umayyad Dome of the Rock in Jerusalem", *Ars Orientalis* 3 : 33 (1959); *The Formation of Islamic Art,* (New Haven and London, 1973), 49 - 74 ; F. E. Peters, *The Distant Shrine, The Islamic Centuries in Jerusalem,* (New York, 1993), p. 60.

18 Clinton Bennett, "Islam", pp. 93 -94.

19 Armstrong, *A History of Jerusalem,* pp. 247 -251.

المكتبة الإلكترونية للمشروع المعرفي لبيت المقدس
www.isravakfi.org